دراسات في الرحلة الحجية المغربية (2):

مصطلحات الدراسة

د. عبد الله بوغوتة

أستاذ باحث في التاريخ والتربية والتكوين

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بجهة الشرق

المغرب

ORCID : 0009-0002-1586-2343

تكتسي دراسة المصطلحات والمفاهيم المهيكلة لموضوع الدراسة دوراً جوهرياً لعدة أسباب نذكر منها:

- توضيح المعاني وتقليل اللبس ورفعه؛ بحيث إن دراسة المصطلحات تساعد على فهم المحتوى بشكل أدق، وإن تحديد المفاهيم المستخدمة ضمن سياقها الخاص يقلل من احتمالية الفهم الخاطئ أو التفسير المتعدد للمصطلحات.

- تحقيق التواصل العلمي الفعال؛ بحيث يُعد الفهم المشترك للمصطلحات بين الباحثين خصوصا وجمهور القراء عموما، ضرورياً لضمان التواصل السلس والفعال بينهم، مما يسهم في بناء معرفة متسقة يمكن الاعتماد عليها عند المقارنة والاستفادة من الأبحاث والدراسات المختلفة التي تستعمل المصطلح أو المصطلحات ذاتها.

- التأطير النظري لموضوع الدراسة، باعتبار أن المصطلحات ركيزة أساسية في بناء الإطار النظري لأي دراسة؛ نظرا لأنها تسهم في توجيهها ضمن مجالها المحدد، وتضع الحدود التي سيتناولها البحث.

- تفسير النتائج لأن دراسة المفاهيم توفر إطارًا يساعد على تفسير النتائج وتحليلها ضمن سياق علمي واضح، مما يسهل استنباط العلاقات وتحقيق الأهداف البحثية.

- مواكبة التطورات المعرفية؛ لأن تحليل ودراسة المفاهيم يساعد على استمرارية الاطلاع على التطورات والمستجدات في مختلف مجالات وحقول المعرفة الأكاديمية؛ حيث يمكن أن تتغير دلالات المصطلحات أو تطرأ عليها إضافات جديدة تعكس تطور الفكر العلمي في المجال.

تعتبر إذن دراسة المصطلحات والمفاهيم جزءاً حيوياً في تعزيز وتوحيد الفهم المشترك، وتوجيه البحث العلمي نحو تحقيق نتائج موثوقة ومؤثرة.

انطلاقا من هذه الأسباب وغيرها من ضوابط البحث العلمي، سنحاول دراسة أهم المصطلحات والمفاهيم المهيكلة للدراسة، والتي تتجلى أساسا في مصطلحات تتعلق **بالفعل** وهو الرحلة، والرحلة الحجية خاصة، ثم **الزمن** القار وهو موسم الحج من كل سنة، والوقت الممتد منذ دخول الإسلام إلى بلاد المغرب إلى يومنا هذا. أما بالنسبة **للمكان** فسنركز أساسا على مصطلح "المغرب" باعتباره منطلق هذه الرحلات.

أولا: الرحلة

إن الحديث عن الرحلة يقتضي التفريق بين أمرين أو معنيين: الرحلة بصفتها حركة انتقال، والرحلة بصفتها تأليفا لمجريات وأحداث الرحلة.

فأما الرحلة بصفتها حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: «رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة [...]. والرحلة: الارتحال [...]. وَيُقَالُ رَاحَلَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا عَاوَنَهُ عَلَى رِحْلَتِهِ. ورَحَّله، إذا أَظْعَنَه من مكانه»[1].

وعند ابن منظور: «رحل الرجل؛ إذا سار، [...] ورجل رَحول، وَقَوْمٌ رُحَّل أَي يَرْتَحِلُونَ كَثِيرًا. ورَجُل رَحَّال: عَالِمٌ بِذَلِكَ مُجِيدٌ لَهُ. [...] والترحل والارتحال: الانتقال. والرّحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرِّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده»[2].

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: «اِرْتَحَلَ اَلْبَعِيرُ: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كتَرَحَّلُوا. والاسم: الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة»[3].

[1]- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، اتحاد كتاب العرب، 1423هـ/2002م، مادة: ر حل.

[2] - ابن منظور، **لسان العرب**، ط1، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ/1993م، مادة رحل.

[3] - الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، دار الجيل. 394/3. مادة: رحل.

وجاء في «**العامي الفصيح**»[1]: رَحَلَ: عن المكان رحيلاً. ورحّله: جعله يرحل. وارتحل فلان: رحل. ترحَّل: رحل. الرحالة والرحَّال: الكثير الرحلة. والرحلة: الارتحال. والرحيل: الارتحال. والمرحلة: المسافة تُقَدَّرُ حسب العرف.

و**المَرْحَلة**: واحدة المَراحِل يقال بيني وبين كذا مَرْحَلة أَو مَرْحلتان. والمَرْحَلة: المنزلة يُرْتَحل منها وما بين المنزلين مَرْحلة.[2]

وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعاني نفسها، وبهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى رحلتَي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (1) اِيلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (3) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ (4) وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ(5) ﴾[3]

وذكر القرآن الكريم مصطلحات أخرى تفيد معنى الرحلة، ومن ذلك السفر والسير في الأرض، وما يتعلق بذلك من أحكام وآداب، كأحكام الصلاة والصيام، وآداب النظر والاعتبار...

إذًا، فمعاجم اللغة تُجْمِع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر. وبهذا المعنى يكون العديد المغاربة وغيرهم من البشر، قديما وحديثا، قد أنجزوا رحلات ورحلات قد لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة، وطبيعة البشر، ولأن «الثواء هو الثوى»[4]. بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات، لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته.

وهذا المعنى الأول يتأسس عليه المعنى الثاني، الذي يعتبر الرحلة ذلك النص المكتوب الذي يحكي فيه الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه من أحداث، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.

وإنجاز الرحلة بالمعنى الثاني، يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى تعليمي وثقافي معين، يؤهله لنقل أحداث سفره إلى نص مكتوب، وإلا فهو يحتاج إلى غيره ليقوم بذلك.

ومن المعلوم أن الإنسان عرف الرحلة أو التَّرْحال والتنقل بفطرته، التي جبل عليها منذ أول رحلة في تاريخ البشرية، حينما هبط آدم وحواء إلى الأرض ليعبدا الله وليعمرا وذريتهما الأرض، وتنتشر ذريتهما فيها، وتسعى وراء مصادر الرزق والارتقاء المادي واللامادي.

---

[1]- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، قسم اللغة العربية والمعاجم، **العامي الفصيح**، المجلد 1، باب الراء، مادة: رحل. ص67.

[2]- **لسان العرب**، 265/11.

[3]- سورة قريش، الآيات 1-5. (برواية ورش عن نافع)

[3]- جزء من شطر بيت لابن دراج القسطلي:

أَلَمْ تعْلَمِي أَنَّ اَلثَّوَاءَ هُوَ اَلثَّوَى وَأَنَّ بُيُوتَ اَلْعَاجِزِينَ قُبُورُ

وكثيرا ما كانت الطبيعة تؤرق الإنسان، وتشغل باله، فيقضى ساعات طويلة يتأمل فيها. وكثيرا ما كانت تفاجئه برياح عاتية أو برعد وبرق أو بما هو أفظع؛ حيث تجعله أحيانا يلملم أغراضه، ويرحل إلى مكان آخر يلتمس فيه بعض الأمن، وبعض العزاء عما يكون قد فقده؛ بسبب هذه الطبيعة الغامضة التي يبيت يفكر في أسرارها، لعله يأمن بعض أشرارها، ويتعايش معها، بل ويستفيد منها ومن خيراتها.

ومن هنا، نأتي إلى تذكر القولة الشهيرة التي مفادها أن في السفر عدة فوائد: منها السعي وراء الرزق، وتحصيل العلم، واكتساب الخبرة، والترفيه، ورؤية بلاد جديدة، واكتساب مزيد من العزة عند الأهل، والاستشفاء في حالة المرض.

وهذا ما عبر عنه الشافعي رحمه في قوله[1]:

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

لم تظهر الكتابة عن الرحلة عند المسلمين إلا بعد الهجرة النبوية، وانطلاق الفتوحات الإسلامية، وازدهار الحضارة الإسلامية؛ بحيث ظهرت كتابات عن رحلات قام بها رحالة مسلمون، وظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك الحين، ولقد وصل بعض الرحالة المسلمين في وقت مبكر إلى بلاد قريبة وأخرى بعيدة كالصين والهند وبلاد ما وراء النهر وتركيا وغيرها.

وقد أدى الرحالة المسلمون مهمة جليلة للأجيال القادمة؛ إذ أسهم تدوينهم لرحلاتهم وكتاباتهم في مجال الرحلات في نقل كثير من الصور والمشاهد المميزة للبلاد التي زاروها وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وإلقاء الضوء على تاريخ تلك البلاد، وأفكار سكانها وتقاليدهم التي قد تختلف، وقد تتفق، مع عادات أهل البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة؛ فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها.

ولقد ذكرت الرحلة لفظا في القرآن الكريم في سورة قريش2، وارتبط مفهوم الرحلة بالنسبة للأنبياء منذ بدء الخليقة، ونرى ذلك واضحا في مسألة خلق آدم مثلا، وكيف أغواه إبليس وكان سببا له للخروج من الجنة، وغضب الله تعالى عليه. وهبوطه هو وزوجه إلى الأرض، هو بداية رحلة

[1]- الإمام الشافعي، **ديوان الشافعي**، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1426هـ/2005م، ص 49.
[2] - سورة قريش، الآية 2، في قوله تعالى: (إِيلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ).

البشرية على الأرض، ويبدو أن لفظة ﴿اَهۡبِطُواْ﴾ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ اَهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ وَلَكُمۡ فِے الۡاَرۡضِ مُسۡتَقَرّ وَمَتَٰعٌ اِلَىٰ حِينٍ﴾[1]، مرادفة لكلمة «ارحلوا» و«سافروا»، وكذلك ورد في الآية كلمة متاع إلى حين دلالة على السفر؛ إذ إن المسافر يحتاج إلى المتاع في الرحلة، وهو ما يتزود به.

من الأنبياء الذين رحلوا وذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم؛ إبراهيم عليه السلام، الذي رحل من أرض بابل إلى أرض فلسطين، ومر بمصر. ثم رحلته المشهورة إلى مكة؛ حيث ترك زوجه وولده إسماعيل وحيدين بواد غير ذي زرع، ثم عودته ورفع قواعد البيت الحرام رفقة ولده إسماعيل.

ومن الذين ارتحلوا اضطرارا وكرها نبي الله يوسف عليه السلام، حين كاد له إخوته، وألقوا به في بئر ليتخلصوا منه، ويخلو لهم وجه أبيهم. لكن الله عز وجل يريد أن تتم الرحلة إلى أرض مصر، وفي نهاية المطاف يؤتى النبوة والملك، فيرحل إليه أبواه وإخوته، ويستقرون معه في ظل ملكه بمصر.

ويذكر القرآن الكريم الرحلات الثلاث، ذات الدوافع المختلفة التي قام بها موسى عليه السلام:

الرحلة الأولى هي رحلة هروب من القتل، وعنها يقول رب العزة في محكم التنزيل: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنۡ اَقۡصَا الۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ اِنّ الۡمَلَاَ يَاتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَاخۡرُجۡ اِنِّے لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ﴾[2]. وكان موسى عليه السلام قد استغاث به إسرائيلي من شيعته على عدو قبطي من قوم فرعون، فوكز موسى القبطي فقضى عليه، وهذه الفعلة من موسى عليه السلام، كانت كبيرة عند فرعون وملئه؛ إذ كيف يُقتل قبطي من أجل إسرائيلي حقير(في نظرهم)؛ لإن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واستذلهم، وفي فعلة موسى نوع من التمرد والتجرؤ على فرعون وملئه، وفيها نوع من التحدي بنصرة أولئك الضعفاء المضطهدين؛ لذا ثارت ثائرة فرعون وملئه، وتشاوروا فيما بينهم على قتله، ولكن الله عز وجل الذي حفظ موسى منذ ولادته، لم يسلمه لأعدائه، بل قيَّض له ناصحًا أمينًا جاء يسعى من أقصى المدينة، لينبه موسى لحماية نفسه بالإسراع بمغادرة البلدة

[1] - سورة الأعراف، الآية:23.

[2] - سورة القصص، الآية:19.

قبل أن يدركه الملأ فيقتلوه، وأكد له أهمية الخروج وخطورة البقاء بتحذيره الكامن في قوله: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

وهكذا يجد موسى عليه السلام نفسه مضطرًا للخروج من الديار المصرية، التي نشأ وتربى فيها، هروبا من الأذى الذي قد يلحقه به فرعون وملؤه لا محالة، وطلبا للأمن في أرض مدين. والثابت أن موسى عليه السلام ليس أول الخارجين من ديارهم ولا آخرهم، بل إن كثيرين من قبله ومن بعده من الأنبياء خرجوا من ديارهم، وكثيرين هددوا بالإخراج منها.

والرحلة الثانية هي رحلة هروب جماعي؛ حيث إن الله تعالى أيد نبيه موسى عليه السلام بنصره، ونجاه وقومه من بطش فرعون وجنده، وهذا بعدما تبين لفرعون أن موسى على حق، وأنه يوشك أن يجر الناس إلى صفه، خصوصا وأنهم يتزايدون كل يوم، يؤمنون برب موسى، ويكفرون بفرعون؛ فقرر أن يبيدهم، وبعدما فروا تبعهم، فكان مصيره وجنده أنهم كانوا من المغرقين، بعدما جعل الله لموسى –عليه السلام-وقومه، طريقا يبسا في البحر. يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ إِسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ إِضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ(68) ﴾[1]

ويخلد القرآن الكريم رحلته الثالثة التي تعد من أشهر الرحلات العلمية في التاريخ، وهي رحلته عليه السلام رفقة الرجل الصالح الخضر عليه السلام، ليتعلم منه، كما يذكر القرآن الكريم، أن موسى عليه السلام وفتاه، خرجا في طلب الرجل الصالح: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (65) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (66) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (67) قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا(68) ﴾ [2]

وكما يظهر من الآيات أن موسى عليه السلام قال للرجل الصالح: هل تأذن أيها العبد الصالح، أن تفيض عليّ بعلمك على أن أتبعك وألتزم أمرك ونهيك؟ وكان الخضر عليه السلام، قد

[1]- سورة الشعراء، الآيات 52-68.

[2] - سورة الكهف، الآيات 65-68.

أُلْهِم أنّ موسى لا يصبر على السكوت؛ إذا رأى ما يكره، فقال الخضر لموسى: إنك لن تستطيع معي صبرًا، ولو أنك صحبتني سترى ظواهر عجيبة وأمورًا غريبة. فقال موسى عليه السلام وكان حريصًا على العلم توّاقًا إلى المعرفة: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْراً(68)﴾[1]، فقال الخضر عليه السلام: «إن صحبتني؛ فآخذ عليك عهدًا وشرطًا؛ أن لا تسألني عن شيء، حتى ينقضي الشرط، وتنتهي الرحلة، وإني بعدها سأبيّن لك ما قد تتساءل عنه وأشفي ما بصدرك.

ويشير القرآن الكريم إلى رحلات خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ، وخصوصا الرحلة الكبرى، التي حولت مجرى التاريخ البشري، وهي الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، الهجرة من الذلة إلى العزة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن موطن يصعب فيه بناء دولة الإسلام، إلى موطن سيكون مهد الحضارة الإسلامية... بالإضافة إلى رحلات الحبشة، التي كانت في المرحلة المكية، وهما هجرتان:

كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، مع بداية الاعتداءات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة2، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا فيومًا وشهرًا فشهرا، حتى تفاقمت في أواسط السنة الخامسة، ونبا بهم المقام في مكة، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف، نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾3

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أَصْحَمَة النجاشي؛ ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن، واجهدت قريش في ملاحقتهم، ولكن لما بلغوا إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوا، حتى بلغهم خبر كاذب، أن قريشا قد أسلمت، فرجعوا، لكن وجدوا أن الأمر ازداد سوءا، فقرر المسلمون الهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا. ولبثوا هناك حتى أذن لهم رسول الله ﷺ بالعودة، فعادوا.

1- سورة الكهف، الآية 68.

2- صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 2007، ص92.

3- سورة الزمر، الآية 11.

وكانت رحلات المسلمين، منذ بدايتها، متنوعة الوسائل والغايات. فمن الرحالة المسلمين من رحل فرارا بدينه من أرض الكفر أو الشرك إلى أرض الأمن، وأشهر هذه الرحلات هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة فرارا من اضطهاد وظلم طغاة قريش وجبابرتها –كما ذكرنا سابقا-، ثم هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة – كما أشرت سلفا- فرارا بالدين، وخوفا من الفتنة، ورغبة فيما وعد الله به من التوسعة في الرزق، والتمكين لدولة الإسلام.

ومن أهم الأسباب التي مهدت للرحلة والرحالة الطريق لارتياد العالم، بعد قيام دولة الإسلام، واستتباب الأمر للمسلمين، اتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا[1].

فمنهم من رحل لطلب العلم، وهم من كثرتهم لا يزعم أحد حصرهم، ولا إحصاء رحلاتهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الذين رحلوا لأغراض تجارية.

ومنهم من رحل لاكتشاف الأقطار المراد فتحها؛ حيث انتظمت رحلات ربطت أقطار الدولة الإسلامية بعضها ببعض، مثل البريد المعروف في الدولة الإسلامية، ومن أمثلة الرحالين الذين قاموا بذلك نجد ابن خرداذبه[2]، الذي تولى منصب صاحب البريد في الدولة العباسية[3].

ومن هذه الرحلات نجد السفارية، كرحلة ابن فضلان[4]، فبأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله، خرج ابن فضلان رفقة الوفد المرافق له من بغداد يوم الخميس 11 صفر 309هـ/ 921/06/11م[5]، في رحلة طويلة وشاقة الى أصقاع من العالم كانت مجهولة ومتوحشة. حيث يصف لنا روسيا والبلغار وقبائل الفايكنغ قبل أحد عشر قرنا من الزمان، ويروي ما شاهده من

---

[1] - أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالون المسلمون**، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، بدون تاريخ. ص7.

[2] - ابن خُرْدَاذبه (205-280هـ/820-893م)، هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. مؤرخ وجغرافي من خراسان، عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون. أشهر مؤلفاته كتاب **المسالك والممالك**، وصف فيه المسافات بين البلدان. (انظر **الأعلام** للزركلي، 355/1، ولسان الميزان 96/4).

[3] - إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، قام بمراجعته: إيغور بليايف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، 155/1.

[4] - أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان (ت309هـ/921م)، رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة، (انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 486/1.)

[5] - ابن فضلان، **رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزروالروس والصقالبة**، حققها وعلق عليها وقدم لها، سامي الدهان، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1379هـ/1960م، ص 25.

عجائب وغرائب في تلك البلاد البعيدة بصورة مشوقة، جعلت رحلته تعد من أهم المصادر التي يعتمدها الأوربيون للتعرف إلى حياة أجدادهم في تلك الفترة المظلمة من تاريخ أوربا.

ومنها أيضا، رحلة الغزَّال (156-250هـ/773-864م)[1] إلى بلاد النورمان، والتي تكفل ابن دحية[2] بتقديم تقرير عنها في كتابه «**المطرب من أشعار أهل الأندلس والمغرب**»[3] وغيرهما.

ومن أنواع الرحلات أيضا؛ الرحلة العجائبية كرحلة أبي حامد الغرناطي[4]، الذي اشتهر برحلاته التي بدأها سنة 508 هـ/1114م، برحلته إلى الاسكندرية في مصر، ثم رجوعه إلى بلده برحلة أخرى سنة 511هـ/1117م. وزار بغداد ومكث بها أربعة أعوام، وزار إيران ووصل إلى بحر قزوين ومصب نهر الفولجا، وقام بثلاث رحلات إلى خوارزم، واشتهر بكتابه «**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**»، ولكن الرحلة لأداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي، استحوذت على مصطلح «**الرحلة**» في تاريخ المسلمين.

وتبقى الرحلة بشكل عام أداة مهمة للتعرف على المجتمعات وأحوالها، فهي «ليست مجرد جنس أدبي، بل هي شهادة عن جزء من الزمان والفضاء الخاصين بالتاريخ البشري»[5]، يمكننا من خلالها أن نطلع على عدد من المؤشرات التي بتجميعها وتصنيفها يمكننا أن نرسم صورة للمجتمع الذي عاش فيه الرحالة، أو المجتمع الذي زاره.

ثانيا: الحج

قال ابن منظور[6] : «الحَجُّ القصدُ. حَجَّ إِلينا فلانٌ، أَي قَدِمَ وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً قصده، وحَجَجْتُ فلاناً أَي قصدته... قال ابن السكيت: يُكْثِرُونَ الاختلاف إِليه هذا الأَصل، ثم تُعُورِفَ

[1] - هو يحي بن الحكم البكري الجياني، المعروف بالغزال، شاعر مطبوع من أهل الأندلس، أرسله بعضهم رسولا إلى ملك الروم. (انظر **الأعلام** للزركلي، 143/8).

[2] - ابن دحية الكلبي (554-633هـ/1150-1236م)، هو عمر بن علي بن محمد، أبو الخطاب، أديب مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة، ولي قضاء دانية، ورحل إلى مراكش والشام والعراق وخراسان، واستقر بمصر. (انظر **الأعلام** للزركلي، 44/5).

[3] - تقرير عن سفارة الغزال إلى النورمان، ضمن كتاب «**المطرب من أشعار أهل المغرب**» تحقيق: ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، دار العلم للجميع، بيروت 1955، ص133.

[4] - أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القليسي الغرناطي الأندلسي (473هـ-565هـ/1080-1170م). رحالة وكاتب أندلسي ولد في غرناطة، ورحل إلى المشرق، وتوفي في دمشق. (انظر ترجمته كاملة له في «**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**» أبو حامد الغرناطي، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1413هـ/1993م، ص7 وما بعدها)

[5]- صالح مغيربي، **رحالة الغرب الإسلامي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر للميلاد**، ترجمة عبد النبي ذاكر، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، ط1، يونيو2005، ص11.

[6] - لسان العرب، 266/2.

استعماله في القصد إلى مكة للنُّسُكِ والحجِّ إلى البيت خاصة. تقول حَجَّ يَحُجُّ حَجًّا. والحجُّ قَصْدُ التَّوَجُّه إلى البيت الحرام بالأَعمال المشروعة فرضاً وسنَّة. تقول حَجَجْتُ البيتَ أَحُجُّه حَجًّا إذا قصدته وأَصله من ذلك.

ورجلٌ حاجٌّ، وقومٌ حُجَّاجٌ وحَجِيجٌ. والحَجِيجُ جماعةُ الحاجِّ...قال الأَزهري: الحَجُّ قَضاءُ نُسُكِ سَنَةٍ واحدةٍ. وبعضٌ يَكسر الحاء، فيقول الحِجُّ والحِجَّةُ. وقرئ بالفتح: ﴿وَلِلهِ عَلَي ٱلنَّاسِ حَجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ إِسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وهو أَكثر. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَي ٱلنَّاسِ حَجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[2] يقرأُ بفتح الحاء وكسرها والفتح الأَصل والحَجُّ اسم العَمَل[3].

أما أشهر الحج في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[4]، فهي شوَّال وذو القعدة وذو الحجة، قال الفراء معناه وقتُ الحج هذه الأَشهرُ... وذو الحِجَّةِ شهرُ الحَجِّ سمي بذلك لِلحَجِّ فيه». وهناك ألفاظ ذات صلة بالحج ومدلوله الشرعي، منها:

المنسك، لقول النبي ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ» كما في صحيح مسلم، وفي رواية البيهقي: « خُذُوا عَنِي مَنَاسِكَكُمْ » وفي رواية أبي داود: « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

والشعيرة، لقول الله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[5]

وعند الفقهاء: الحج قصد الكعبة لأداء أفعال مخصوصة، أو هو زيارة مكان مخصوص في زمن مخصوص. فالمكان المخصوص هو الكعبة وعرفة، والزمن المخصوص هو أشهر الحج. ولكل فعل زمان خاص؛ فالطواف مثلا، عند الجمهور، من فجر النحر إلى آخر العمر، والوقوف بعرفة من زوال الشمس، يوم عرفة، إلى طلوع فجر يوم النحر، والفعل المخصوص أن يأتي محرما بنية الحج إلى أماكن معينة.[6]

---

[1] - سورة آل عمران، الآية 97.

[2] - سورة آل عمران، الآية 97.

[3] - حِجُّ الْبَيْتِ: مَصْدَرٌ يُقْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، وَهُمَا لُغَتَانِ. وَقِيلَ: الْكَسْرُ اسْمٌ لِلْمَصْدَرِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ «عَلَى النَّاسِ». (انظر **التبيان في إعراب القرآن**، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت 616هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 281/1.

[4] - سورة البقرة، الآية 196.

[5]- سورة البقرة، الآية157.

[6]- وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1409هـ/1989م، 3/8-9.

وهو زيارة الكعبة، في موسم معين في وقت واحد للجماعة، وفيه وقوف عرفة.[1] أو هو قصد مخصوص إلى موضع مخصوص، في وقت مخصوص، على شرائط مخصوصة[2].

والحج من الشعائر التي تعبد الله بها عباده المسلمين، من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ومن بعده من أمته إلى يوم الدين. يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[3]. وقد حج أنبياء الله ورسله عليهم السلام، إلى بيت الله الحرام، ودعوا أتباعهم إلى أداء هذه الشعيرة.

ولقد «كانت مكة المكرمة والكعبة المشرفة مقصد الحجاج عبر التاريخ منذ آدم إلى يومنا هذا. وبمرور الزمان غير الناس في طريقة الأداء، وبقي الأصل واحدا، وهو حج بيت الله الحرام. ففي الجاهلية على سبيل المثال، كان العرب يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون ويصفقون. وقد سجل الله عليهم هذه الحالة، فقال مستنكرا: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[4]. «والمكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق»[5]. ولما جاء الإسلام أرجعه إلى أصوله وأكمله وأتمه، فأصبح على صورته النهائية، التي ارتضاها الله لعباده، من خلال عمله ﷺ في حجة الوداع، وقوله ﷺ: «خُذُوا عني مَنَاسِككُم».[6]

ولقد خص القرآن الكريم الحج بسورة هي سورة «الحج»، كما ورد اسم «**الحج**» في القرآن الكريم معرفا بالألف واللام في خمسة مواضع هي:

- ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِۦٓ أَذىً مِّن رَّأْسِهِۦ

[1]- ابن العربي، **أحكام القرآن**، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2003م،169/1.**والجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م، 142/4.

[2]- الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، 1984م، 21/4.

[3]- سورة الحج، الآية32.

[4]- سورة الأنفال، الآية 34.

[5] - عبد الباري محمد الطاهر، **الحج في الشرائع الإلهية و أثره في ريادة مكة المكرمة تاريخيا**، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، ح310، وأبو داود في المناسك، وأحمد في المسند 337/3، 378، بلفظ عن جابر قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ اَوْ صَدَقَةٍ اَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ ۞فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ اَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِۗ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَاتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْاَلْبَٰبِۗ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْاَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

ووردت كلمة «حج» في القرآن الكريم غير معرفة في موضعين:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[7].

[1] - سورة البقرة، الآية 195.
[2] - سورة البقرة، الآية 196.
[3] - سورة التوبة، الآية3.
[4] - سورة الحج، الآية27.
[5] - سورة البقرة، الآية189.
[6] - سورة البقرة، الآية158.
[7] - سورة آل عمران، الآية97.

ثالثا: الرحلة الحجية

نقصد بها الرحلات المكية، أو الرحلات الحجازية، تلك الرحلات التي كانت وجهتها أرض الحجاز؛ لأداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة فيها. وهذه الرحلات كانت فردية وجماعية، برية وبحرية، رسمية وشعبية.

ولعل مصطلح «**الرحلات الحجية**» أكثر دقة من غيره؛ لأن الرحلات الحجازية، تطلق على الرحلات التي يكون قصدها أرض الحجاز عامة، أما الرحلات المكية؛ فقد تكون خارج أوقات الحج.

وتقتضي الرحلات الحجية المغربية توافر مجموعة من العناصر، منها الزمان والرفقة والمنطلق والمسار...

أما اختيار المسار في هذه الرحْلات فمشروط بعدة شروط، منها الشروط المكانية والزمانية والبشرية التي تتعلق بالقرب والبعد من الجهة المقصودة، وبتوفر وسائل الراحة والأمن والأمان في مختلف المحطات والمنازل، وكذا بطبيعة العلاقات القائمة بين الدول، وبالحالة الصحية لمجتمعات طرق الحج[1]، دون أن ننسى الرفقة؛ أي الركب، فقليلا ما وجدنا من سافر وحيدا خصوصا خلال المرحلة الزمنية التي نحن بصددها.

وهي تعد من أهم أسباب الالتقاء والاتصال والتواصل بين جميع المسلمين، أينما كانوا، بمركز الإسلام ومهبط الوحي: «**مكة المكرمة**»؛ بحيث يجتمعون في وقت واحد، على صعيد واحد، لهم قصد واحد، وما يؤلفهم أكثر وأقوى مما يميز بعضهم عن بعض، حتى إنهم في بعض الأحيان يستغنون في التواصل بينهم عن الكلام.

رابعا: ركب الحج

استعمل مصطلح «**ركب الحج**» أو «**ركب الحاج**» [2] أو «**ركب الحجيج**» أو «**قو افل الحج**» للدلالة على «**الرحلة الحجية الجماعية**». ومن المؤرخين من استعمل مصطلح «**الركب النبوي**»، وفي مقدمتهم المؤرخان محمد بن أحمد أكنسوس في «**الجيش العرمرم**»[3]، وأبو القاسم الزياني في

[1] - سليمان القريشي، الماء في **الرحْلات الحجية المغربية بين الحقيقة والمجاز**، مجلة «فكر ونقد»، عدد87،

[2] - محمد المنوني، **من حديث الركب المغربي**، معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، تطوان، 1953.

3- الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، محمد بن أحمد أكنسوس، تحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1994.

«**البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**»[1]. وهناك من استعمل مصطلحا ربطه بالجهة التي يمثلها، كالركب الصالحي[2].

ويبقى المفهوم أو المعنى واحدا، وهو الرحلة المنظمة من المغرب، أو غيره من أرض الإسلام، إلى مكة المكرمة، لأداء فريضة الحج وسنة العمرة، وزيارة الأماكن المقدسة.

وقد وردت لفظة «**الركب**» في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾[3].قال القرطبي في تفسير هذه الآية: يعني ركب أبي سفيان وغيره. كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة. وقيل: هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم، فذكرهم نعمه عليهم. والركب جمع راكب. ولا تقول العرب: ركب إلا للجماعة راكبي الإبل. وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال راكب وركب إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب. والركب والأركب والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال.[4]

وقال السمين الحلبي، في «**الدر المصون في علم الكتاب المكنون**»[5]، في معنى لفظة «**الركب**» في الآية السابقة: «والرَّكْبُ اسمُ جمعٍ لراكب لا جمعُ تكسيرٍ له خلافاً للأخفش لقوله:

بَنَيْتُه مِنْ عُصْبَةٍ مِنْ مالِيا أخشى رُكَيْباً أو رُجَيْلاً غاديا

خامسا: المغرب

يدل لفظ «المغرب» على مكان من الأمكنة بإضافته إلى المشرق، ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى المغرب، وتختلف المصادر والمراجع في تحديد حدود المغرب وخاصة من نواحيه الثلاث: الشرقية والشمالية والجنوبية، مع العلم بأنه يحد غربا بالمحيط الأطلسي.

1- أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، دار المعارف الجديدة، الرباط،1992م.

2- نسبة لمؤسسه محمد بن صالح الذي كان يذهب – مدة حياته كلها – من أسفي للحجاز، (**أسفي وما إليه قديما وحديثا**، محمد بن أحمد العبدري الكانوني، ص99.

3 - سورة الأنفال، الآية42.

4- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض،1423 هـ/2003م، 21/8.

5- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(ت756)، **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 1406هـ، 612/5.

1. الحدود الشرقية

يجعل أغلب المؤرخين الحدود الشرقية للمغرب ما بين برقة والإسكندرية. فالإصطخري[1] (ت 340هـ/951م) يقول إنها: «بين الإسكندرية وبرقة، من حد بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، حتى يمضي على ظهر الواحات، إلى برية (صحراء) تنتهي إلى أرض النوبة»[2]. وهذا يتماشى مع رأي المقدسي[3] (ت حوالي 375هـ/985م) الذي زار المنطقة، على ما يبدو، وجعل أول كُوَرِه، «من قبل مصر، برقة» مشيرا إلى أن اسمها يطلق كذلك على اسم القصبة[4] مما يدل على أنه يقصد إقليم برقة وليس مدينتها؛ ويدقق الزُّهري[5] أكثر، في هذا الأمر فيقول إن أول بلاد المغرب، من جهة الشرق، جبال برقة أوثان[6]، وهذه الجبال على آخر مصر وأول عمل القيروان[7]، والقيروان هنا، كما هو واضح، يرادف بلاد المغرب، ويبين أن كورة برقة تابعة له.

غير أن ابن خلدون يدخل عنصرا آخر مهما في تحديد المغرب، فيقول إن العرف في وقته (ق8-9 هـ/14-15م)، بين سكان المغرب، أنهم لم يدخلوا إقليم برقة ضمنه منطقة المغرب، لأنه يختص بمواطنهم؛ أي إن ابن خلدون يأخذ بعين الاعتبار الناحية الديموغرافية، مما يدفعنا إلى البحث في موضوع «**ديار البربر ومواطنهم**»، أو ما يصطلح عليه في بعض الأدبيات بأرض «**تامزغا**» في القديم، وهذا الأمر سيساعدنا في الوصول إلى تحديد أدق للمغرب.

---

[1]- هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، ويقال له الكرخي: جغرافي، رحالة، من علماء إصطخر (بإيران)، قام بسياحة طاف خلالها ببلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الأوقيانوس الأتلانتيكي، واستعان بكتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره؛ فألف كتابيه «صور الأقاليم» على اسم كتاب البلخي، و«مسالك الممالك». ونقل ياقوت عنهما أو عن أحدهما في معجم البلدان، وأغفل ترجمته أو الإشارة إليه في كلامه عن إصطخر، مكتفيا بتسميته في مقدمة المعجم أبا إسحاق الإصطخري. (دائرة المعارف الإسلامية،256/2، وفيها: (لا نجد ذكرا لسيرته في أي كتاب. ويرى دي خويه أن كتابه «مسالك الممالك» لم يكن سوى نسخة جديدة لمصنف سابق كتبه أبو زيد البلخي. ودائرة البستاني، 744/3. وفيها أنه ابتدأ رحلته سنة 951م. ومعجم المطبوعات، 453 وهدية العارفين، 6/1).

[2]- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، **مسالك الممالك**، دار صادر، بيروت، 2004، ص36.

[3]- محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، ويقال له البشاري، شمس الدين، أبو عبد الله: رحالة جغرافي، ولد في القدس. وتعاطى التجارة؛ فتجشم أسفارا هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» (انظر **الأعلام** للزركلي، 312/5).

[4]- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991، 80.

[5]- محمد بن أبي بكر الزهري (حوالي 532هـ/1137م)، عالم بتقويم البلدان، من أهل غرناطة، له كتاب الجغرافيا. (**معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، 167/3)،

[6]- الزهري، **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، طبعة مكتبة الثقافة الدينية، ص107.

[7]- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص106

ويعتبر ابن عبد الحكم[1](ت257هـ/871م) أقدم من تحدث عن هجرة البربر من فلسطين، وذكر أن مسيرتهم انتهت إلى «لوبية ومراقية»، وهما كورتان من كوَر مصر الغربية... فتفرقوا هنالك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال[2]...وهي أرض برنيق كما يشير إلى ذلك الإدريسي[3]، وابن خلدون[4] ، وابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك[5].

2.الحدود الشمالية

يتكرر الاختلاف نفسه بالنسبة للحدود الشمالية لبلاد المغرب؛ بحيث نجد اختلافا كثيرا في كتب الجغرافيا. فابن خرداذبه[6]، واليعقوبي[7] وابن الفقيه الهمداني[8]، أدخلوا الأندلس في ضمن بلاد المغرب عندما وصفوها.

ويطلق ابن رسته[9] (توفي قبل 290هـ/903م) تسمية المغرب على الاتجاه الغربي، وليس على إطار جغرافي معين. ومن خلال إطلاقه تسمية «**بحر الروم و إفريقية ومصر**» على جزء من البحر الأبيض المتوسط، يتبين أنه يعني ببحر الروم السواحل الشمالية التي ينتشر فيها بحر الروم، ويعني بإفريقية السواحل، من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر[10].

[1] - أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري، المالكي (ت عام257هـ/871م) ، محدث، ومؤرخ، وفقيه، من أهل مصر. (انظر معجم المؤلفين، 96/2).

[2] -، ابن عبد الحكم، **كتاب فتوح إفريقية والأندلس**، حققه وقدم له: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م.

[3] - إسماعيل العربي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، مقتبس من نزهة المشتاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص212.

[4] - ابن خلدون، كتاب العبر، 128/2.

[5] - فتوح إفريقية والأندلس، ص34.

[6] - ابن خرداذبه، **المسالك والممالك**، ليدن، مطبعة بريل، 1881، ص 2-3. وابن خرداذبه هو أبو القاسم، عبيد الله بن خرداذبه الخرساني، مؤرخ، وكاتب وراوية للأخبار والآداب، توفي في حدود سنة 300 هـ، من مصنفاته: المسالك والممالك، الندماء والجلساء، اللهو والملاهي، كتاب الطبيخ، وآداب السماع... (انظر **معجم المؤلفين**، 349/2.)

[7] - اليعقوبي، **كتاب البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م ص 180 فما بعدها.

[8] - **كتاب البلدان**، ص30.

[9] - أحمد بن عمر، أبو علي ابن رسته (توفي نحو 300 هـ/912 م) عالم جغرافي. فارسي الأصل، من أهل أصفهان. رحل إلى بلاد العرب حاجا، سنة 290هـ، وصنف «الأعلاق النفسية». (انظر ترجمته في الأعلام للزركلي، 185/1، دائرة المعارف البستانية، ط2، 92/3، معجم المطبوعات 107، معجم البلدان 565/3) .

[10] - ابن رسته، **كتاب الأعلاق النفيسة**، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت، 1998م،

ويقسم الإصطخري: الغرب (وليس المغرب) إلى نصفين ممتدين على بحر الروم (الأبيض المتوسط)، يمثل النصف الشرقي الضفة الجنوبية منه، ويمثل النصف الغربي الأندلس[1]، ويذكر في حديثه عن بحر الروم أنه «يأخذ[2] من البحر المحيط (الأطلسي)، في الخليج الضيق (المضيق) الذي بين المغرب وأرض الأندلس حتى ينتهي إلى الثغور الشامية»[3]. ويقول في مكان آخر: «وإنما تركنا أن نذكر في طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس، لأنها مثل الكم في الثوب، وليس في شرقي المغرب ولا في غربيها إسلام، لأنك إذا جاوزت مصر في أرض المغرب، كأن جنوبي المغرب بلاد السودان وشمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم»[4].

فالإصطخري، إذاً، يدخل الأندلس في إطار النصف الغربي (الشمالي) من المغرب، عند تقسيمه نصفين، ويميز المغرب عن الأندلس، عند وصفه بحر الروم، ويجعل الفاصل بينهما مضيق جبل طارق، ويلاحظ أنه عند تجاوز مصر «في أرض المغرب»، كان شمال المغرب بحر الروم ثم أرض الروم. بمعنى آخر، فإن هذه الأراضي لا تدخل في دار الإسلام، وبالتالي فهي غير تابعة لمغربه.[5]

ويطلق ابن حوقل[6] (ت378 هـ/988م) أحيانا مصطلح «المغرب» على البحر الأبيض المتوسط، معتبرا جانبه الغربي هو الذي يمتد عليه بعض المغرب، من برقة شرقا إلى أزِيلَى[7] غربا، في حين يشمل جانبه الشرقي بلد الروم، من حدود الثغور الشامية إلى جليقية (Galicia)، ثم باقي ذلك إلى آخره ما كان في يد أصحاب الأندلس[8]، وهذه «جزيرة تتصل بالبر الأصغر، من جهة جليقية

---

[1] - المسالك والممالك، ص36-37.

[2] - أي: يبدأ.

[3] - نفسه، ص 6.

[4] - نفسه، ص 11-12.

[5] - ابن عميرة محمد، **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2008، ص:15.

[6] - أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، (توفي بعد 367هـ977م)، رحالة، رحل من بغداد سنة 331هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها. ويقال: كان عينا للفاطميين له «المسالك والممالك»، (انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي، 111/6، دائرة المعارف الاسلامية، 145/1 والرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص39-42).

[7] - أزيلى بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ولام وياء ساكنة أيضا، مدينة بالمغرب في بلاد البربر بعد طنجة في زاوية الخليج الماد إلى الشام عليها سور متعلقة على رأس جرف خارج في البحر وهي لطيفة وشربهم من آبار عذبة قال ابن حوقل الطريق من برقة إلى أزيلي على ساحل بحر الخليج إلى البحر المحيط ثم تعطف على البحر المحيط يسارا، (انظر معجم البلدان للحموي، دار الفكر، بيروت 170/1) هي مدينة أصيلا حاليا، وهي توجد على ساحل المحيط الأطلسي، على بعد أربعين (45) كلم جنوب طنجة.

[8] - ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص16.

وإفرنجة، وهي في جملة المغرب»[1]. لكنه عندما يرسم خريطة يبين فيها حدود المغرب يخرج الأندلس، في حين يعتبر المقدسي كلا من الأندلس وصقلية من جزائر إقليم المغرب.[2]

وقد تحدث أبو عبيد البكري (ت487هـ/1094م) في كتابه «**المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**» عن إفريقية والمغرب وبلاد السودان، فحصر حدود إفريقية الشمالية «من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا... «[3] ولا يشير إلى الأندلس ولا إلى صقلية.

وبعد البكري بحوالي نصف قرن، يعتبر الزهري (ت532هـ/1137م) مضيق جبل طارق (الخليج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق) الحد الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب[4]. ويضم جزر يابسة وميورقة إلى الأندلس[5] وجزيرة صقلية إلى بلاد الإفرنج[6]. غير أن الشريف الإدريسي (ت حوالي 550هـ/1160م)، الذي عاصره، تردد كثيرا في فصل المغرب عن الأندلس، فهو لم يحسم الأمر[7].

أما عبد الواحد المراكشي، في كتبه «**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**»، الذي ألفه بعد قرن تقريبا (سنة621هـ/1224م)، فيميز بين المغرب وبين الأندلس، حيث نجده يعتبر السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، بمثابة خط حدودي شمالي للمغرب بدءا بمدينة برقة وانتهاء بمدينة طنجة[8]، في حين نجد ابن عذارى (ت 695هـ/1295م)، يأخذ بعين الاعتبار التمييز بين العدوتين ابتداء من العنوان: «**البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب**»، الاقتناع نفسه نجده عند ابن خلدون في كتابه العبر[9]، حيث يعتبر البحر الرومي حدا شماليا للمغرب.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها هي أن أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب يعتبرون حدود بلاد المغرب، من الناحية الشمالية، هي السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ولا تتجاوزها

---

[1] - نفسه، ص 65-66.

[2] - المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص315.

[3] - أبو عبيد البكري(ت487هـ)، **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك»، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص21.

[4] - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، **كتاب الجغرافية**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص113.

[5] - المصدر نفسه، ص 113 وما بعدها.

[6] - المصدر نفسه، ص130-131.

[7] - الإدريسي، **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**، تحقيق محمد حاج صادق، ص172 فما بعدها.

[8] - عبد الواحد بن علي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م، ص7.

[9] - كتاب العبر لابن خلدون، 195/6.

إلى الأندلس ولا إلى جزر البحر المذكور، ويدعم هذه النتيجة العنصر الديموغرافي؛ بحيث إذا اعتمدنا العنصر البشري معيارا للتحديد، فإن بلاد البربر(**تامزغا**) هي نفسها بلاد المغرب. لكن إذا استحضرنا المفهوم التاريخي للمغرب، فإننا نرجح ما ذهب إليه العديد من الباحثين، وهو أن الحدود الشمالية للمغرب تمتد إلى أقصى نقطة في شبه القارة الإيبيرية.

3.الحدود الجنوبية.

وفيما يخص الحدود الجنوبية لبلاد المغرب، نجد أن أغلب المؤرخين والجغرافيين يتفقون على أن الصحراء تحد المغرب جنوبا.

فقد أشار الإصطخري إلى أن الرمال تغطي حدود بلاد المغرب من البحر المحيط (الأطلسي) إلى ما وراء سلجماسة، ثم تمتد بعدها إلى زويلة (قصبة فزّان)، فإلى ظهر الواحات بمصر[1]. ويعتبر ابن حوقل حدود المغرب الجنوبية «نواحي أرض غانة وأرض أودغست».[2]

وتبعد أودغست، حسب الإدريسي، عن مدينة باريسى السودانية، الواقعة إلى الجنوب منها باثنتي عشرة مرحلة، وبمثلها عن عانة، وبإحدى وثلاثين مرحلة من وارقلان[3]. وتتفق أغلب المصادر على تأكيد غلبة بربر صنهاجة على سكانها[4].

ويجعل اليعقوبي أهل فزّان أخلاطا من الناس، غير أن ابن حوقل، بعده يوضح أن قبائل من البربر المهملين تعيش على المياه الموجودة في نواحيها.[5]

وخلاصة القول: إنه عند أخذ العنصر البشري بعين الاعتبار يتبين أن البربر، من مختلف القبائل، كانوا يتجولون في الصحراء طولا وعرضا، وكانت لهم بها مراكز تجمع كثيرة، والكثير منها مشرف على بلاد السودان. وما قلنا أعلاه عن الشمال نقوله عن الجنوب، أي أن المغرب يمتد إلى كل نقطة كانت تابعة للسلطة المركزية.

---

[1] - الإصطخري، **مسالك الممالك**، ص37.

[2] - ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996م، ص:65.

[3] - **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق**، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، 1903، ص212.

[4] - من هؤلاء: اليعقوبي في «كتاب البلدان»، ص360؛ ابن حوقل في «صورة الأرض»، ص100-101؛ ويذكر البكري، في مكان آخر أن من سكانها من زناتة مع العرب، المصدر السابق، ص168.

[5] - صورة الأرض، ص 84.

4. معايير أخرى لتحديد بلاد المغرب (التاريخي)

ثمة عنصر مهم نراه قد يؤثر، إلى حد بعيد، في مفهوم المغرب الذي نحن بصدد تحديده، وهو المتغير السياسي، خصوصا وأننا حصرنا زمن الدراسة في مرحلة الحكم المريني التي تميزت بما تميزت به غيرها من المراحل من مد وجزر، حيث إن الرقعة الجغرافية للدولة المغربية على عهد بني مرين لم تستقر بصفة نهائية، بل امتدت غربا، وشرقا، وجنوبا، وشمالا.

وفي هذا الصدد يقول محمد القبلي وهو يتحدث عن **عناصر التبدل والاستمرار بمغرب العصر الوسيط** إن «كل الجذور التي سوف نقف عندها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأرض، كما هو الشأن بالنسبة لسائر الجذور، وما نقصد بالأرض هنا هو الفضاء الجغرافي المعروف اليوم بالمغرب الأقصى أو المغرب، ولعلني لست في حاجة إلى التذكير بأن هذا الفضاء ينتمي لفضاء أوسع يسمى هو الآخر بالمغرب أحيانا، وإن كان يتسع لما يعرف حاليا بالمغارب أو المغرب الكبير»[1].

كذلك علينا ألا ننظر إلى التحركات السكانية في العصر الوسيط، بنفس المنظور السياسي والقانوني والاجتماعي المعاصر. وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الهادي التازي: «نعطي للمغرب بعدا جغرافيا واسعا يشمل قواعد الأندلس وبلدان المغرب الكبير وبلاد السودان، لأننا نعرف أن المغرب كان في فترة واسعة من الفترات **يمثل إقليما واحدا**، بحيث نجد أن القاضي يمكن أن يكون أصلا من المغرب الأدنى (تونس حاليا) ويتعلم بقرطبة (الأندلس)، ويستقضى بالمغرب الأوسط (تلمسان) ليتحول إلى قضاء إشبيلية، ثم يعين قاضيا بالمغرب الأقصى (فاس) على أن يصل إشعاعه إلى مالي في قلب إفريقيا الغربية»[2].

وبناء على ما سبق، سنعتمد ما ذهب إليه الدكتور عبد الهادي التازي، أي أن المغرب يتكون من الدول الحالية: ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا والمغرب إضافة إلى الأندلس، وما ذهب إليه الدكتور أحمد عبداللطيف حنفي، في قوله: «ويتسع لفظ المغرب عند كتاب المسلمين ليشمل

---

[1] - محمد القبلي، **حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط**، سلسلة الدروس الافتتاحية، الدرس الثاني، 23أكتوبر2000، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

[2] - عبد الهادي التازي، **مكة في مائة رحلة ورحلة**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1426هـ/2005م، 23/1.

كذلك الأندلس (إسبانيا والبرتغال حاليا) قبل انفصاله عن حكم الإسلام، وقد يتسع أيضا ليشمل صقلية (في جنوب إيطاليا) وكل بقعة حل بها المسلمون في أوربا الغربية، فهناك المغرب الإفريقي وهناك المغرب الأندلسي، ولهذا، فإن كلمة المغرب أو مغاربة تعني أيضا الأندلس وأهله»[1].

[1]- أحمد عبد اللطيف حنفي، **المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، 5/1.